



معركة إدلب فتحت شهية جميع المنخرطين في أزمة سورية. قبل أن تندلع ميدانياً، افتتح الصراع المؤجل على «المخاصصة». مرحلة جديدة في مسار الأزمة، فالجميع يتأنبون لرسم الحدود النهائية لنفوذهم وتعريف مصالحهم بوضوح. يمكن أي طرف أن يعرقل مساعي الطرف الآخر أو محاولات المعارضين على دوره ومنطقة نفوذه. لذلك، تبلورت في الأيام الأخيرة مواقف سياسية وعسكرية، من هنا وهناك، بدت قبل ذلك ضبابية وغامضة أو اتسمت أحياناً بالتناقض، خصوصاً الموقف الأميركي.

المرحلة مصيرية لجميع المعنيين، خصوصاً أن الساحة العراقية تتبلور فيها مواجهة سياسية ليست بعيدة مما يجري في سورية والإقليم عموماً. وليس بعيدة، خصوصاً، من «المعركة» بين الولايات المتحدة وإيران. إدارة الرئيس دونالد ترامب ت يريد تثبيت «حصتها» السورية والعراقية. ولا ترغب في أن يشاركتها أحد فيهما. بل تبدو أنها ترغب في أن تشارك هي الآخرين «حصصهم». وتخوض صراعاً مريضاً في بغداد لترجح كفة حلفائها لتضمن لهم الإمساك بكرسي الحكومة، وتضمن لنفسها تاليأً أرجحية في القرار السياسي العراقي. وقد أكدت أن قواتها باقية في بلاد الرافدين... حتى وإن استعجلت الجمهورية الإسلامية زرع صواريخها البالлистية. وحركت «حشد الشعبي» لتوفير إقامة مريحة لـ «حرسها» في عاصمة الرشيد. وحتى إن التقى رؤساء الأركان في كل من العراق وروسيا وسوريا وإيران في غرفة عملياتهم المشتركة في هذه الأيام بالتحديد تحت شعار مواصلة «التنسيق بمواجهة داعش» وبقایاها.

إدارة الرئيس ترامب، كشركائهما الأوروبيين، حذرت من تداعيات عملية عسكرية كبيرة في إدلب. وتحيي مواقفها الأخيرة

بأنها ترحب في العودة لاعباً فاعلاً ومؤثراً في الأزمة السورية. واصلت إمداداتها العسكرية لحلفائها الكرد و «قوات سوريا الديمقراطية» عموماً، من أجل حماية مناطقهم شرق البلاد وشمال شرقها، وحماية قواعدها أيضاً في هذه المناطق. علماً أنها لم تعرّض على محادثتهم مع أركان النظام في دمشق من أجل توفير الخدمات للسكان الخاضعين لإدارتهم المحلية فقط لا غير. وأطلقت مواقف سياسية كانت غيبتها لأكثر من سنتين. لعلها أدركـت متأخرـة أنها أخطـأت في الدفع نحو إقامة «مناطق خفض التوتر»، خصوصاً في جنوب سوريا. أخطـأت في تـكـليف روسـيا بنـاء هـذـه المـنـاطـق لـترـسيـخ وـقـف النـار تـمهـيدـاً لإـطـلاق عـلـمـة التـسـوـيـة السـيـاسـيـة. لكن النـتـيـجة جاءـت بـخـلـاف ما اـشـتـهـتـ. كان يـفترـض مـبـدـئـياً أن يـبـيرـ هـذـه «ـالـمـنـاطـقـ» أـهـلـهاـ والـفـصـائـلـ المـنـتـشـرـةـ فـيـهاـ. وأن يـشـارـكـ هـؤـلـاءـ لـاحـفـاـ فيـ المـفاـوضـاتـ عـلـىـ التـسـوـيـةـ. لكنـ ماـ حـصـلـ هوـ أنـ مـوـسـكـوـ استـغـلـتـ هـذـاـ التـوـافـقـ أـوـ «ـالـتـكـلـيفـ»ـ وـمـكـنـتـ، بـمـسـاعـدـ إـيـرانـ وـمـيلـيشـياتـهاـ، قـوـاتـ النـظـامـ السـوـرـيـ منـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ هـذـهـ المـنـاطـقـ الـواـحـدـةـ تـلـوـ الـأـخـرـىـ. وـهـيـ تـرـيدـ اـسـتـكـمالـ هـذـهـ السـيـاسـيـةـ فـيـ إـدـلـبـ فـلاـ يـبـقـىـ لـهـ مـنـازـعـ قـرـيبـ أـوـ بـعـيدـ.

جوهر المواقف السياسية التي واكبـتـ فيهاـ إـدـارـةـ الرـئـيـسـ تـرـامـبـ الـاستـعـدـادـاتـ الـرـوـسـيـةـ -ـ السـوـرـيـةـ لـفـتـحـ مـعرـكـةـ إـدـلـبـ،ـ أـنـ واـشـنـطـنـ تـسـعـىـ إـلـىـ مـشـارـكـةـ مـوـسـكـوـ تـوزـعـ «ـالـحـصـصـ»ـ،ـ أـوـ فـيـ الـأـقـلـ تـقـلـيـصـ حـصـتـهاـ.ـ كـأـنـهـ تـرـيدـ طـيـ صـفـحةـ تـكـلـيفـهاـ وـإـطـلاقـ يـدـهاـ فـيـ الـعـمـلـ عـلـىـ وـقـفـ الـحـرـبـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ.ـ وـتـرـيدـ إـعـادـةـ نـقـلـ الـعـلـمـةـ السـيـاسـيـةـ إـلـىـ أـرـوـقـةـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ،ـ إـلـىـ جـنـيـفـ أـوـ فـيـيـنـاـ أـوـ نـيـوـيـورـكـ.ـ فـلـاـ تـبـقـىـ فـيـ آـسـتـانـةـ أـوـ سـوـتـشـيـ.ـ تـرـيدـ الـعـوـدـةـ إـلـىـ الـبـدـاـيـاتـ،ـ إـلـىـ قـرـاراتـ الـمـنـظـمـةـ الـدـولـيـةـ،ـ وـلـيـسـ إـلـىـ قـرـاراتـ الـثـلـاثـيـ الـرـوـسـيـ -ـ الـإـيـرـانـيـ -ـ الـترـكـيـ.ـ وـاـسـتـعـادـتـ لـذـلـكـ شـعـارـاتـ قـدـيـمـةـ عـنـ وـجـوبـ قـيـامـ حـكـومـةـ اـنـتـقـالـيـةـ وـلـكـ منـ دـوـنـ قـيـادـةـ الرـئـيـسـ بـشـارـ الـأـسـدـ.ـ وـهـكـذـاـ عـادـتـ تـلـقـيـ مـجـدـاـ مـعـ رـغـبـةـ الـدـوـلـ الـأـوـرـوـبـيـةـ الـمـعـنـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـنـادـيـ بـوـجـوبـ الـرـعـاـيـةـ الـدـوـلـيـةـ لـلـتـسـوـيـةـ السـيـاسـيـةـ،ـ فـلـاـ تـسـتـأـثـرـ بـهـاـ مـوـسـكـوـ لـتـكـونـ عـلـىـ مـقـاسـهـاـ وـبـمـاـ يـخـدـمـ مـصـالـحـهـاـ وـطـمـوـحـاتـهـاـ.ـ لـذـلـكـ،ـ اـمـتـنـعـ هـذـهـ الـدـوـلـ وـلـاـ تـزـالـ تـرـفـضـ الـمـسـاـهـمـةـ فـيـ أـيـ مـشـرـوـعـ لـإـعـادـةـ إـعـمـارـ الـمـدـنـ وـالـدـسـاـكـرـ أـوـ تـأـهـيلـ الـبـنـيـ التـحـتـيـ تـمـهـيدـاـ لـإـعـادـةـ الـلـاجـئـينـ،ـ مـاـ لـمـ تـتـحـقـقـ التـسـوـيـةـ السـيـاسـيـةـ وـالـتـغـيـرـاتـ الـمـطـلـوـبـةـ فـيـ النـظـامـ.ـ بـلـ هـيـ تـأـخـذـ عـلـىـ رـوـسـيـاـ أـنـهـ سـاـهـمـتـ بـدـعـمـهاـ الـعـسـكـرـيـ ماـ لـمـ تـتـحـقـقـ التـسـوـيـةـ السـيـاسـيـةـ وـالـتـغـيـرـاتـ الـمـطـلـوـبـةـ فـيـ النـظـامـ.ـ بـلـ هـيـ تـأـخـذـ عـلـىـ رـوـسـيـاـ أـنـهـ سـاـهـمـتـ بـدـعـمـهاـ الـعـسـكـرـيـ لـإـعـادـةـ الـلـاجـئـينـ فـيـ دـمـشـقـ فـيـ تـفـاقـمـ أـزـمـةـ الـلـاجـئـينـ،ـ فـيـ الـدـاـخـلـ السـوـرـيـ وـخـارـجـهـ.ـ وـكـيـفـ لـهـ أـنـ تـطـمـئـنـ إـلـىـ نـيـاتـ الـكـرـمـلـيـنـ وـمـسـاعـيـهـ لـإـعـادـةـ الـلـاجـئـينـ فـيـمـاـ آـلـتـهـ الـعـسـكـرـيـةـ تـسـتـعـدـ لـتـهـجـيـرـ مـئـاتـ الـأـلـافـ مـنـ مـنـطـقـةـ إـدـلـبـ مـعـ قـرـعـ طـبـولـ الـحـرـبـ!

لـكـ هـذـهـ الـمـوـاـقـفـ الـمـتـأـخـرـةـ لـإـدـارـةـ الرـئـيـسـ تـرـامـبـ قـدـ لـاـ تـلـقـيـ صـدـىـ فـاعـلاـ فـيـ خـلـطـ مـوـسـكـوـ وـمـشـرـوـعـهاـ السـوـرـيـ.ـ غـيـابـ الـحـضـورـ الـعـسـكـرـيـ الـأـمـيرـكـيـ الـفـاعـلـ وـالـمـبـاـشـرـ،ـ وـالـحـدـيـثـ عـنـ اـنـسـحـابـ الـقـوـاتـ مـنـ سـوـرـيـةـ لـاـ يـسـمـحـانـ لـوـاـشـنـطـنـ بـرـفـعـ سـقـفـ طـمـوـحـاتـهـاـ...ـ إـلـاـ إـذـاـ كـانـتـ تـعـتـمـدـ عـلـىـ الـذـرـاعـ الـإـسـرـائـيلـيـةـ الـتـيـ فـرـضـتـ وـتـفـرـضـ شـرـوـطـهـاـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ عـلـىـ جـمـيعـ الـلـاعـبـينـ هـنـاكـ.ـ مـاـ يـعـنـيـ مـوـسـكـوـ أـكـثـرـ فـيـ مـعـرـكـةـ إـدـلـبـ هـوـ مـوـقـفـ تـرـكـيـاـ.ـ مـنـ هـنـاـ،ـ تـبـدـوـ تـصـفـيـةـ آـخـرـ «ـمـنـاطـقـ خـفـضـ التـوـترـ»ـ الـأـصـعـبـ وـالـأـكـثـرـ تـعـقـيـدـاـ.ـ فـلـاـ يـعـقـلـ أـنـ تـرـضـيـ أـنـقـرـةـ بـاـنـتـزـاعـ مـنـاطـقـ نـفـوـذـهـاـ فـيـ شـمـالـ سـوـرـيـةـ بـبـسـاطـةـ وـسـهـوـلـةـ بـعـدـ كـلـ مـاـ قـدـمـتـ وـبـذـلتـ وـتـحـمـلـتـ.ـ لـذـلـكـ،ـ لـمـ تـتـأـخـرـ قـوـاتـهـاـ أـخـيـراـ فـيـ مـدـ كـلـ الـفـصـائـلـ الـمـوـالـيـةـ بـمـاـ تـحـتـاجـ إـلـيـهـ مـنـ عـتـادـ لـمـقاـوـمـةـ عـوـدـةـ قـوـاتـ النـظـامـ إـلـىـ الـشـمـالـ الـحـدـودـيـ الـذـيـ يـنـتـشـرـ فـيـهـ حـوـالـيـ مـئـةـ أـلـفـ مـقـاتـلـ مـنـ شـتـىـ الـتـوـجـهـاتـ وـالـلـوـلـاءـاتـ.ـ لـذـلـكـ،ـ حـشـدـتـ رـوـسـيـاـ هـذـهـ الـآـلـةـ الـعـسـكـرـيـةـ الـكـبـيـرـةـ شـرـقـ الـمـتوـسـطـ لـلـتـهـوـيـلـ وـالـتـرـهـيـبـ،ـ مـنـ جـهـةـ،ـ لـعـلـهاـ تـسـهـلـ قـيـامـ تـفـاهـمـاتـ وـمـصـالـحـاتـ تـنـتـهـيـ بـتـسـلـيمـ آـمـنـ الـمـنـطـقـةـ إـدـلـبـ إـلـىـ الـنـظـامـ.ـ وـمـنـ جـهـةـ ثـانـيـةـ،ـ لـتـحـذـيرـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ مـنـ تـكـرـارـ تـجـرـيـةـ ضـرـبـ قـوـاعـدـ الـنـظـامـ إـذـاـ لـجـأـ إـلـىـ السـلـاحـ الـكـيـماـويـ.ـ وـقـدـ نـجـحـتـ حـتـىـ الـآنـ فـيـ مـارـسـةـ ضـغـطـ كـبـيرـ عـلـىـ حـكـومـةـ الرـئـيـسـ رـجـبـ طـيـبـ أـرـدـوـغـانـ الـتـيـ أـدـرـجـتـ «ـجـهـةـ الـنـصـرـةـ»ـ عـلـىـ لـائـحـةـ الـإـرـهـابـ.ـ وـعـلـىـ رـغـمـ أـنـ هـذـهـ الـخـطـوـةـ جـاءـتـ مـتـأـخـرـةـ،ـ إـلـاـ أـنـهـ قـدـ تـسـاعـدـ هـذـهـ الـحـكـومـةـ فـيـ دـفـعـ الـجـبـهـةـ إـلـىـ

حل نفسها وإلحاد عناصرها بـ «الجبهة الوطنية للتحرير» التي تعدّها أنقرة وغيرها من فصائل موالية لمواجهة الهجوم المرتقب.

لا جدال في أن حكومة الرئيس أردوغان تواجه امتحاناً صعباً وتحدياً مصرياً. فهي من جهة تخوض معركة اقتصادية - سياسية غير متكافئة مع إدارة الرئيس ترامب، وتواجه تحدياً روسيّاً كبيراً في إدلب ومحيطها. وإذا كانت ترفض محاولات واشنطن تركيتها عبر العقوبات، فإنها تعلي الصوت رفضاً للهجوم المرتقب على مناطق انتشار قواتها وقوات حلفائها من فصائل المعارضة. فهي تدرك أن خسارتها هذه المناطق وتراجع قواتها إلى مواقعها خلف الحدود سيخلان أزمة سياسية كبيرة في الداخل التركي تضاف إلى الأزمتين الاقتصادية والمالية المتفاقمتين. ولا يحتاج الرئيس أردوغان إلى مزيد من المتاعب والمشكلات. كما أنه لا يمكنه أن يسلم بحصول طهران على «حصتها» اتفاق تعاون عسكري مع دمشق وشرعية لعسكرها في بلاد الشام، فيما عليه هو أن يخلّي الساحة! والسؤال هنا لا يتعلّق بمدى قدرة أنقرة على خوض مواجهة عسكرية مع الحملة الروسية - السورية، بقدر ما يتعلّق بمدى استعداد الرئيس بوتين لاغضاب تركيا والمغامرة بخسارة كل شبكة العلاقات التي بناها مع هذا البلد لبعاده من حلف شمال الأطلسي، وانزاعه من حضن الولايات المتحدة. فهل يقدم الكرملين على انتهاز فرصة تردي العلاقات بين تركيا والولايات المتحدة لإخراج القوات التركية من سوريا؟ أم إن ثمة حسابات أخرى تفرض عدم المجازفة وتحاشي جملة من التداعيات؟ لا جدال في أن الزعيم الروسي حريص على تمتين علاقته بتركيا حرصه على تمتين حضوره في سوريا.

قد يكون التراجع عن الهجوم متعرّضاً بعد كل هذه الاستعدادات. ولكن، في ضوء الاعتبارات المذكورة، يمكن موسكو وأنقرة التوصل إلى صيغة وسط تحفظ لكل منهما ماء الوجه، وتضمن لتركيا «حصتها». فهل تتوافقان على اقتصار الحملة على موقع ذات رمزية معينة، كمثل استعادة قوات النظام جسر الشغور التي تشكّل نقطة استراتيجية تمسك بطرق الساحل غرب البلاد باتجاه حلب شمالاً وسهل الغاب جنوباً. وكانت المدينة سقطت في أيدي فصائل المعارضة ربيع 2015 بعد مواجهات شرسة مع قوات قادها العقيد سهيل الحسن الملقب بالنمر. ويمكن أيضاً القوات التركية التي تنشر نقاط مراقبة لوقف النار في المنطقة أن تضمن مع حلفائها من الفصائل أمن الطرق التي تربط العاصمة الشمالية للبلاد بباقي المناطق جنوباً وغرباً. وإذا لم تصح «النصرة» لمطالب أنقرة يمكن هذه أن تشن الحملة بنفسها على الجبهة لتحصل على تركتها في التحكم في مناطق الشمال السوري... ولكن بربما روسيا أولاً وأخيراً، كما هي حال إيران التي قيدتها شروط التفاهم بين موسكو وتل أبيب.

المصادر:

جريدة الحياة